مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

١ ـ حديث عيسى بن هشام

للدكتور زكي مبـــارك

فاتحة البحث — فوضى مزعجة — جنتمكان — الأمير — سبب الفوضى — تاريخ الكتاب — المويلحي الكبير والمويلحي الصغير — أصل الشبهة — سجين القلعة واليؤس — الأديب المضطهد لنسبه وغناه — عصارة الشدائد — أغراض المؤلف — عقلية المويلحي — طبعات الكتاب

فاتحة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين ...

أما بعد ، فهذا بحث في كتاب « حديث عيسى بن هشام » المقرر للامتحان التحريري في مسابقة الأدب العربي ، والمرجوّ — إذا وفّق الله — أن يكون فيه ضمانة مؤكدة للنجاح في ذلك الامتحان ، على شرط أن ينظر الطلبة في الكتاب نظرة جدية بعد قراءة هذا البحث ، لأن الغرض من أمثال هذه البحوث هو التوجيه إلى الاطلاع عن بصيرة ويقين . ويخطئ من يظن أننا ننوب عنه في قراءة ما يريد من الكتب ، وفي استخلاص ما يشاء من الحقائق ، ليواجه الامتحان وهو لا يملك غير ملاحظات لم يسهر له فيها جفن ، ولم يقلق وساد !

هذه أبحاث نقدية ، والنقد فنّ من التوجيه ، وليس ضرباً من التحصيل ؛ فليفهم أولئك الشبان هذا المعنى ، وليقرأوا الكتب التي ننقدها قراءة فهم واستقصاء ، بعد أن يستوعبوا ما فيها من المعاني والأغراض

فوضى مزعجة

هي الفوضى المحيطة بكتاب « حديث عيسى بن هشام » ، فما يكاد القارئ يعرف في أيّ عام أُلّف ، ولا يكاد يتصور أيّ مجتمع يصوّر ، لولا عبارات تنطق بأنه كُتب بعد موت « جنتمكان محمد علي » : الجد الأكبر للملك فاروق ، رحم الله الجد ، وحرس الحفيد ...

جنتمكان

وما « جنتمكان » التي ترد في الكتاب من صفحة إلى صفحات ؟

لقد استبهمتْ عليّ أولَ الأمر ، وعجزت عن الاهتداء إلى نطقها الصحيح ، ومدلولها الأصيل ، ثم عرفت بعد لأي أنها كلمة تركية رُكّبتْ تركيباً مزجيًّا من كلمتين عربيتين : هما « جَنّة » و « مكان » ؛ وإذن يكون : « جَنّتمكان » هو ساكن الجنان ؛ وهي العبارة التي تذكرها الجرائد حين تتحدث عن كبار الأسلاف من البيت المالك ؛ والظاهر أن « جَنّتمكان » كانت مفهومة عند تأليف الكتاب ، فتركها المؤلف بلا شرح ؛ وهل كان يخطر في باله أن معناها سيغيب عن رجل في مثل حالي ؟ !

اللهمّ إني أسألك السلامة من الجهل ، فهو أخطر الأعداء !

الأمير

الألقاب نُظّمت في هذا العهد بطريقة واضحة الرسوم، فصرنا نعرف الفروق بين طبقة الأمراء وطبقة النبلاء من الوجهة الرسمية

فلنذكر أن كلمة « أمير » في عهد مؤلف الكتاب لم تكن تدل حتما على أن الموصوف بها من أعضاء البيت المالك ، وإنما كان الأمير هو الغنيّ ، ولو كان أجداده أبعد الناس من دماء الملوك

حدثني الشاعر عبد المحسن الكاظمي قال : كان محمود سامي البارودي أميراً بكل ما لهذه الكلمة من المعاني

وقد توهمت في بعض ما سطرت من البحوث أن « إمارة » البارودي كانت رسمية أو شبه رسمية ، لأن أجداده كانوا من أمراء المماليك ، فالآن أعرف أن الإمارة في مصر كانت من نصيب أصحاب الثراء في جميع الأحوال[1]

والكاظميّ عراقيّ استمصر ، وقد هال الرصافي أن يبكيه العراقيون بعد الموت فقال :

فيا عجباً يبكيك وأنت مَيّتٌ ... بلادٌ ضيّعتْك وأنت حيٌّ

سبب الفوضى

وسبب الفوضى التي يعانيها من يقرأ « حديث عيسى ابن هشام » أنه خلا خلوًّا فظيعاً من التواريخ ، وهل يوجد

(١) ومع ذلك وردت كلمة « أمير » في ص ٢٣٠ في سياق يدل على أن المؤلف يقصد أحد المنتسبين إلى البيت المالك

أعجب من أن تكون رسالة السيد جمال الدين الأفغانى إلى المويلحى بدون تاريخ ؟

أستغفر الله ، فالنص الزنكوغرافى ينص على أنها فى ١٩ ربيع الثانى

ولكن من أى عام هذا الربيع الثانى ، يا سيد جمال الدين ؟

تاريخ الكتاب

يقول المؤلف إن كتابه مجموعة مقالات نشرت فى « مصباح الشرق » ؛ ومن السهل على المقيم بالقاهرة أن يراجع تلك الجريدة فى دار الكتب المصرية ، فما الذى يصنع المقيم بمدينة دمشق أو مدينة بغداد ؟

فى الصفحة الرابعة والثمانين نجد المؤلف يقول : « إنها أبدع نكتة فى آخر القرن » فنعرف أن الكتاب ألف فى آخر القرن التاسع عشر للميلاد

المويلحى الكبير والمويلحى الصغير

عرفت اللغة العربية فى العهد القريب كاتبين عظيمين باسم المويلحى ، ثانيهما محمد وأولهما إبراهيم ، وكانت لإبراهيم مخاطرات سياسية دونها على صفحات « الرسالة » أحد أحفاده منذ سنين ، فليرجع إلى تلك الصفحات من شاء ، عساه يعرف كيف كانت مناورات ذلك الكاتب فى ختل السلطان عبد الحميد

والمهمُّ هو أن أسجِّل أن إبراهيم كان الكاتب الكاتب ، وإليه تُنسب بالباطل أو بالحق رسائل ابنه محمد فى « حديث عيسى بن هشام » ، فقد مرَّت أزمان والناس يعتقدون أن محمداً ابن أبيه فى كل شىء ، حتى ذلك الحديث

أصل الشبهة

ولهذه الشبهة أصل ، فقد سكت محمدٌ بعد موت أبيه سكوت المُريب ، فتقوَّل الناس عليه الأقاويل ، وظنوا أدبه من الصنف المدخول .

وقوَّى الشبهة أنه استُغضِبَ فلم يغضب ، ولو كانت التهمة باطلة لثار وهاج ، وفعل بخصومه الأفاعيل .

سجين القلعة والبوسى

فى سنة ١٩٢٤ تفضل الدكتور منصور بك فهمي فوصلنى بالمؤرخ الكبير أحمد باشا شفيق ، وكانت مهمتى أن أدوِّن مذكرات شفيق باشا بأسلوب مقبول . ثم جاء رمضان فدعانى الباشا لطعام الفطور مع جماعة منهم الكاتب العظيم محمد بك المويلحى ، فكيف رأيت المويلحى ؟

كان يلبس الردنجوت من غير مزجب ، وقد قضى الوقت كله فى صمت ، فصح عندى أن أدبه لا يخلو من تزييف

وفى صبيحة اليوم التالى واجهت أحمد باشا شفيق برأيى فى محمد بك المويلحى ، فسكت لحظة ثم قال : هل تعرف كيف يعيش هذا الرجل وكان ابن ذوات ؟

— كيف يعيش ؟

— أتجهل كيف يعيش ؟

— وهل أعلم الغيب ؟

— إن محمد بك المويلحى يقضى الأيام والأعوام وليس له زاد غير الخبز والملح والماء ، فهو أعظم من داوَى الفقر بالتجمل فى هذا الزمان

— أيعيش المويلحى هذا العيش ؟

— هو غنىٌّ افتقر ، ولا تصلح هذه الهامة العالية لاستجداء الناس ، ولو كانوا من الأمراء والملوك

الأديب المضطهد لنسبه وغناه

نشأ محمد المويلحى نشأة المياسير ، فكان من حقه أن يستكبر على الناس كما يستكبر من يكون فى مثل غناه ، ولكن سليقته الأدبية فرضت عليه أن يدرس جميع الطبقات الاجتماعية بلا تفريق بين المرتفعين والمتضعين ، فكان يمشى أماكن السوقة كما يمشى أماكن الأمراء[1]

وفى ذات ليلة تطاول عليه سفيه فى إحدى الحانات فضربه كفًّا ، كالذى يقع فى أماكن الشبهات والظنون

فكيف كانت المواقب ؟

أقام السخفاء من أدباء مصر موسماً سموه « عام الكف » عليهم غضبات صاحب الجبروت .

ومن العجب العاجب ، والسخف الساخف ، أن يكون شاعرنا إسماعيل باشا صبرى أحد المشتركين فى الشماتة بالأستاذ محمد المويلحى مع أنه مدح الشيخ أحمد الزين !

فيا بنى آدم من أهل هذه البلاد ، متى تعقلون ؟

متى ؟ ثم متى ؟

(١) فى الكتاب شواهد كثيرة على أن المويلحى كان يرتاد مواطن الشبهات ليدرس أخلاق الناس

عصارة السرائر

تصدُر عني من وقت إلى وقت آراء في غاية من الغرابة والشذوذ في نظر الناس ، ثم تجيء الشواهد التي تؤكد أني لم أكن من المخطئين

ومن آرائي الشاذة في نظر الناس قولي بأن الأديب الغنيّ أقدر على فهم الحياة من الأديب الفقير ، وأشد إدراكاً لما في الحياة من مكاره وصعاب

وكان ذلك رأيي لأني أومن بأن الأغنياء تقع في حيواتهم تعقيدات لا يعرفها الفقراء ، وما يسيغ ذهني فكرة القول بأن الفقير يدرك معنى البؤس على الوجه الصحيح ، لأن الفقر عصمة من مواجهة «الخطوب الثقال» ، وقد نعرف بعد حين أن الفقراء هم الأغنياء

أقول هذا وقد صح عندي أن براعة المويلحي في كتابه أخذت مدَدَها الأصيل من اضطلاعه بمتاعب الحياة في وقتٍ مبكر ، مع الاعتراف بأنه كان لا يزال في رعاية أبيه ، ولم يكن عرف طعم القوت الدائم بالخبز والملح والماء

ومن حظ الأدب أن المويلحي لم يؤجل تسطير ملاحظاته إلى أن يشرب الصُّبابة من كأس البؤس ، فما يستطيعُ بائسٌ معدم أن يتبيّن ما يريد أن يقول

كان المويلحي في عافية حين سطر تلك الأحاديث ، ثم عمّ الغمّ وطمّ ، فآثر الانعزال إلى آخر الزمان

لم يعرف الأدباء الفارغون من أصحاب الجرائد الهزلية أن الأديب الحق لا يتوقد خاطره في كل حين ، ولم يفهموا أن البلبل لا يغرّد إلا وهو جذلان ، فمدّوا سكوت المويلحي بعد موت أبيه دليلاً على أن أدبه من ضروب الأدب المنحول ، ولو عقلوا لفهموا أن الرجل أصابته بموت أبيه كوارث معاشية تزلزل رواسي الجبال

إلى مَنْ يتوجّه المويلحي وقد عادَى جميع الطبقات باسم الأدب والبيان ؟

وهل كان خصماؤه قبل عشرين سنة إلا كتَبَة مأجورين يأكلون النار طائعين أو كارهين ؟

لقد مات المويلحي وظلوا أحياء ، فمن الحيُّ ومن الميت ؟

تبارك من جعل الأدب الصحيح سر الخلود !

أغراض المؤلف

للمويلحي من كتابه أغراض أدبية واجتماعية وتاريخية ، فهو يريد أولاً أن يقدم للأدب صوراً من البيان الوهّاج ، وقد فاز من هذه الناحية فوزاً مبيناً ، بغض النظر عما يقع من تكلف السجع في بعض الأحايين . ولا جدال في احتواء هذا الكتاب على صفحات يتمنّاها كبار الكاتبين

وهو يريد ثانياً أن يصور المجتمع ، فهل أفلح في تصوير المجتمع ؟

لقد وصل إلى أبعد الغايات في تصوير الطبقات العالية من وزراء وعلماء وتجار وقضاة ومحامين وأعيان وأوشاب ، وللأوشاب في مصر مكان ، ولكنه غفل عن تصوير الطبقة التي تمدّ الحياة المصرية بالغذاء السليم من الآفات ، وهي طبقة الزراع والصناع . وعذرُه في هذه الغفلة واضح ، لأنه عاش عيشة لا تمكنه من التعرف إلى هؤلاء الناس

أما ملاحظاته التاريخية فهي من التفاهة بمكان !

عقلية المويلحي

عقلية هذا الرجل سليمة إلى أبعد الحدود ، ولكنها تجود بالمضحكات في بعض الأحيان ، كأن يتحدث عن سور بابل فيقول : هو عدة أسوار متداخلة بعضها في بعض يتسع محيطها للاحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس ، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً ، وعرضه سبعة وعشرين متراً ، ومن حوله خندق عميق ، وعليه أبراج متعددة ، وله مئة باب من حديد[1]

يقول المويلحي هذا الكلام المضحك مع أنه نص على أن حدائق بابل المعلقة كانت في اتساع أربعين فداناً ، ومع أن من المستحيل أن تسمح ثروة العراق بإقامة سور له ذلك الطول وذلك العرض ، وفي محيط يسع سبع مدائن مثل مدينة باريس ، باريس التي يسكنها نحو خمسة ملايين ، مع اتساع الشوارع والميادين ، ومع ابتلاع نهر السين

طبعات الكتاب

ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٩٠٧ ، وظهرت الطبعة الثانية سنة ١٩١٢ ، والطبعة الأخيرة هي الرابعة مع الرحلة الثانية ، وهي موضوع الدرس ، وعليها المعوّل في الامتحان ، وقد عُنِيَ المؤلف بتنقيحها قبل أن ينتقل إلى عالم الخلود

وكلمتي هذه تمهيدٌ وجيز يحتاج إليه المتسابقون بعض الاحتياج أو كل الاحتياج ، أما البحث المقبل فأنا أرجو أن يكون عند ما أريد ، إن تفضل الله بالتوفيق .

زكي مبارك

(١) ص ٤٥٣